كتاب « الايديولوجيات الانقلابية »
والحركات العربية الثورية

بقلم سلمى الخضراء الجيوسي

« ويل لنا ان لم ندرك منطق التاريخ الذي يسود هذه المرحلة ... ويل لنا ، ثم ويل لنا ان لم نع منطق الديالكتيك الثوري الذي تكشف عنه المرحلة التاريخية التي نمر بها » .
نديم البيطار – من رسالة خاصة

عندما يقف المرء ازاء كتاب « الايديولوجية الانقلابية » يشعر اولا بالغربة . فالكتاب ضخم وغني – انه مقارنة ديناميه هائلة بين مناحي التجربة الانسانية التاريخية ، بل بين تجارب كثيرة كبرى قام بها الانسان عبر القرون . ثم بعد ان يتمالك القارىء الجرأة على التوغل ، مستنجدا بقوى نفسه ، بكبريائه ، وثقافته ، ورفضه ان يعود مدحورا يصبح هو شيئا فشيئا ، جزءا من الكتاب ، يتنفس به ويعيش حيانه وثورته وكلمانه الجديدة . وما ان ينهيه حتى يكون الطرفان ، القارىء والكتاب ، قد امتلك الواحد منهما الاخر . هذا ما حدث معي ، ولكنه حدث مع عدد كبير من أصدقائي ممن قرأوا الكتاب ... السر هو انه يفسر جميع تشوفات الانسان في هذه الارض ويعين له معالم ينطلق منها الى جميع الافاق التي تهمه . فحتى في الفن وجدت ان المنطق التاريخي الذي يتحدث عنه قادر على ان يمنح العمل الفني ، لا سيما الرواية ، معنى وعمقا وغاية ، وان يضفي عليه حيوية لا تضاهى .

لقد اعطيت في مقال سابق لي صورة خاطفة عن الفكرة الاساسية التي يقوم عليها الكتاب وفسرت اهميتها . وتتلخص هذه الفكرة في الكشف عن القانون الايديولوجي الانقلابي الذي يسود جميع التجارب الايديولوجية الثورية التي تعبر عن مراحل انتقالية كبرى في التاريخ والتي تنتقل بالانسان من مجتمع تقليدي رجعي مهلهل الى مجتمع جديد ينقضه من الجذور وخصوصا في قواعده العقائدية التي كان يعتمدها كأسلوب في الحياة . الدكتور نديم البيطار حاول ان يصف ويحلل التركيب الايديولوجي العام الذي يعيد ذاته في جميع الايديولوجيات التاريخية .

اما هذا المقال فهو محاولة للتعرض قليلا لعلاقة ذلك بالحركات العربية القومية المعاصرة . ان الكتاب يتركز حول القانون الايديولوجي العام ولا يوفر للحركة العربية القومية ايديولوجية معينة تعتمدها . انه يصف ويحلل لها ذلك القانون ولكنه لا يعين لها المضمون الايديولوجي الذي يمكن ان تعتمده في حشو ذلك الشكل او القانون . هذه الناحية استوقفت نظر بعض الثوريين العرب الذين يتلهفون الى ايديولوجية محددة ويعانون شوقا ملحا الى مضمون ايديولوجي معين يعتمدونه .

وازاء هذا الموقف آراني مسوقة الى محاولة ايضاح المشكلة وتحديد العلاقة بين الكتاب وآرائه وبين الايديولوجية العربية الانقلابية التي تستطيع ان تجتاز بالامة العربية هذه المرحلة الى مرحلة التجدد الشامل . ولعل افضل وسيلة اتبعها هنا هي ان أعرض ، بايجاز شديد ، بعض ما ذكره المؤلف في مواقع متعددة من الكتاب عن تلك العلاقة ، وعن أهمية الدراسة العامة التي يوفرها الكتاب للحركة العربية الثورية .

ان الكشف عن قانون ايديولوجي انقلابي عام يسود جميع التجارب الايديولوجية الثورية في مراحل التاريخ الانتقالية يساعدنا نحن ، الذين نمر انفسنا في مرحلة مماثلة من هذه المراحل الانتقالية في التاريخ ، ان نقيس مدى الدينامية التي تتسم بها مرحلتنا نحن وان نحاول مواجهة انجازاتنا العقائدية الثورية مواجهة واقعية بمقارنتها مع الايديولوجيات الانقلابية الاخرى التي غيرت معالم الحياة في أمة او في اخرى . ولعل قارىء الكتاب سيخرج بنتيجة حتمية هي ان المرحلة العربية الانتقالية الحالية ، اذ نراها على ضوء مراحل مماثلة في تاريخ البشرية ، ستجد نفسها مضطرة الى التعبير عن ذاتها ، شاءت أم أبت ، متخذة مشكلا ايديولوجيا مماثلا لا بد منه . ولهذا فان المعرفة السلفية لما سيقع ووجود القياس التاريخي المتكرر الذي يضعه الكتاب سيساعد على « ضبط » قوى الحركة العربية القومية الانقلابية ، توجيه سيرها ، توفير الجهود وتركيزها ، قياس نجاحها ، الحكم على أوضاعها القائمة بمقياس علمي صحيح ، الانباء بمستقبلها ، اختصار الطريق اليها » (ص ٨٠) .

ان كل علم يفترض وجود معرفة معينة ينطلق منها ، وكل معرفة تعتمد صعيدين اثنين : صعيدا نظريا ، وصعيدا تطبيقيا يستند اليه وينبعه . مشكلة الحركة العربية القومية هي ان طبيعة المرحلة الانتقالية التي تمر بها الامة تفرض على هذه الحركة ان تصنع التاريخ ، ولكي تتمكن من ذلك ، فان عليها ان لا تقتصر على تحولات سياسية اجتماعية مهما بلغت أهميتها ، بل ان عليها ان تتجاوزها الى الصعيد الروحي والنفسي فتحوله من جذوره وتبني الانسان العربي الجديد . كتاب « الايديولوجية الانقلابية » يصف ، بدقة متناهية ومقارنة مستمرة ، الطريق الذي كانت تعتمده مراحل من ذلك النوع في بلوغ هذا القصد (ص ٤٧٠) .

نعم ، ان الحركة العربية القومية تواجه مشكلة بناء مصير جديد . ولذا فان عليها ان تدرس ، قبل كل شيء اخر ، المرحلة العربية الانتقالية الحالية على ضوء غيرها من المراحل الانتقالية الثورية المماثلة ، وتقابل بين القانون الايديولوجي الذي يسود هذه المراحل والحركة العربية القومية في مرحلتها الحاضرة . ان ادراك النموذج الايديولوجي الانقلابي العام الذي فرض نفسه على جميع الانقلابات انما هو المدماك الاول في بناء أي صرح اجتماعي روحي جديد .

فاذا كان الدكتور البيطار لم يقدم بنفسه بعد قواعد الايديولوجية الشاملة التي يجب أن تقوم بالانقلاب العربي فان ذلك ليس نقصا في الدراسة ، لانها قبل كل شيء لا تدعي ذلك ، بل هي دراسة عامة شاملة في ناحية معينة من نواحي الفلسفة الاجتماعية .

وما قد « يخال لنا بانه سلبية في هذه الدراسة هو في الواقع ايجابية ، بل ايجابية حادة عنيفة وان كانت غير مباشرة . لان القارىء العربي سيقارن في كل جزء منها بينها وبين الوضع العربي الفكري العقائدي فيرى ضرورة تجاوز هذا الوضع ، ويستدل في هذه المقارنة .... ان وعي الشكل الايديولوجي الانقلابي الذي تقوم عليه كل ايديولوجية انقلابية هو في حد ذاته نوع من التمرد ضد الوجود العربي الراهن ، والكشف عن الحدود الانقلابية تلك يعني تجاوزا عفويا للحركة العربية القومية الثورية في حدودها الحاضرة » (ص ١١) .

ان النظريات التي تعتمدها الحركة او الحركات العربية القومية

الثورية لا تجاري ثوريتها . فثورية الواقع العربي تتقدم على الناحية الايديولوجيه في هذه الحركات ـ وهذا اهم تناقضاتها الذاتية . كل حركه انقلابيه تعبر عن مرحلة انتقالية كالمرحله التي نمر بها نحتاج الى معالجه هذه الناحيـــــة ان ارادت ان تكشف عن امكاناتها . كتـاب « الايديولوجيه الانقلابية » هو محاولة للتنبيه الى هذا التناقض والى تعيين الطريق الذي يؤدي الى معالجه .

اننا دائما نتحدث عن الناحيه الايديولوجية الثوريه ، والحركـة العربيه هي ضروره اعمادها وبلورتها في موقف ايديولوجي ثـوري . الخطوه المنطقيه الاولى التي يجب ان تاتي بعد ذلك هي الكشف عـن معومات هذا الموقف . واذا كان هناك معومات وخصائص تعطي هـذا الموقف شخصيه عامه وجب عندئذ تحليلها ووصفها . كتاب « الايديولوجية الانقلابيه » يحاول ان يفعل ذلك بالضبط . ان الحركه العربيه يجب ان تكشف عن سنن المراحل الانتقاليه في التاريخ فتسرع امتولها وتوفـر بذلك نشاطها وتريح ذاتها من آلام التجربه والفشل التي رأينا انها قـد عانتها حتى اليوم في بعض مواقفها . وانها بذلك ستحصر الطريق نحو المصير الجديد . في كتاب « الايديولوجيه الانقلابية » نجد اول محاوله فكريه لمساعدتها على تحقيق ذلك .

من هذا الكتاب نستدل مثلا ان مقاومه الوجود العربي التقليـدي لم تدخل بعد الصعيد الفلسفي او الصعيد الايديولوجي الانقلابي ، وهو صعيد يجب ان تدخله لان دخوله محتوم عليها في تكاملها الثوري . ان الحركه العربية قد عبرت عن ذاتها ، من ناحية ثوريه ، في تحـولات اجتماعيه وسياسية فقط ، وفي اسلـوب تجريبي (براجماتي) . غير انها يجب ان تجاوز ذلك وتدخل الصعيد الفلسفي الايديولوجي كي توسع انقلابيتها . ان عملها خارج هذا الصعيد يزيد من الازمه النفسيه ويكثف ابعاد المشكله الروحية العصيبه التي يعانيها الوجود العربـي المعـاصر .

ان الحركة العربية يجب ان تكون انقلابية ، اي انها يجب ان تعمل على تحويل جذري عام شامل للوجود العربي ، باسم فلسفة حيـــاة جديدة تحرر امكانات العربي ، ليواجه العالم الحديث . انها لا تستطيع ان تتجنب انقلابية من هذا النوع لان القوى الخارجية والداخلية العاملة فيها تفرض عليها ان تطور ذاتها دائما وباستمرار في هذا الطريق . ان امل تلك الحركة في اكتمال ثوريتها ونموها يقع في فلسفة حياة جديدة تدل على هذا التطوير الثوري لها وتعين طريقه ، وفي طليعـة ثوريـة تعبر عن هذه الفلسفة وتشق السبل امامها . كتاب « الايديولوجيـــة الانقلابية » يجد أهميته هنا لانه يحدد الشكل العام الذي يميز كـل ايديولوجية من هذا النوع .

ان عدم تركز الفكر العربي الثوري على فلسفة حياة شاملة ، أي على ايدولوجية انقلابية بمعناها الصحيح ، جعل هذا الفكر هامشيـا سطحيا لا يعرف ميـزة الاستمرار والعمق والجذرية ، وهي ميزة تاتيه من الجهد الفكري المستمر الذي يغذيه وجدان جديد تبلور ونما فـي ظل ايديولوجية انقلابية . ان ايديولوجية من هذا النوع تولد النشاط النفسي والروحي الذي يشمل جميع مظاهر الانقلاب والذي يمكن الحركة العربية من تحقيق مصيرها الجديد . ذلك لا يعني ان بالامكان فـرض تلك الايديولوجية او ان بالامكان نشوءها نتيجة للجهد المنطقي النظـري وحده . ذلك لان الاوضاع العامة يجب ان تكـــون ناضجة ، حبلى بالامكانات الثورية ، قبل ان تتحول الى نظريات فعالة . ولكن الاوضـاع قد تنضج دون نظرية ملائمة تكشف تفجرها الثوري وتعبر عنه وتقوده ، فيبقى عندئذ نضجها ساكنا وتفجرها خامدا . وهذا بالضبط ما بدأت تعانيه الحركة العربية الثورية . فلكي نفهم بشكل اوضح ماذا يجـب ان نفعل علينا ان نعرف اولا اين نحن ، واين نتجه . ان التحـولات الطارئة على الوجود العربي تتجه نحو تحرير الفرد ، مما يقتضي بقيـام وضع يفرض ، بمنطقه الخاص ، توليد ايديولوجية انقلابية . وهـذا يظهر أهمية التعرف مقدما على تركيبها العام ـ التركيب الذي يشرحه الدكتور البيطار في دراسته . فبالنسبة الى الثوري العربي الباحث عن الحل يقوم مغزى هذه الدراسة ، لا فيما تفرضه وتحلله ، بل فـي ان ما تقوله يحدد صعيدا فكريا جديدا يجب ان تقوم المعالجه عليه .

ان الخلاصه الاولى التي نستخلصها من الكتاب هي ان مشكلـة الحركه العربيه القوميه هي مشكله التعبير عن ذاتها في ايديولوجيـة انقلابيه تسميها بالايديولوجيات الانقلابيه عبر التاريخ ، تحل محـــل فلسفه الحياه او الايديولوجيه التقليديه التي سادت الوجـود العربي التقليدي . ان هـذه الحركه تحتاج الى ايديولوجيه انقلابية تدعمها فلسفه اجتماعيه تي تحدد شخصيتها وتحفظ انطلاقها وثورتها . فمـن دونها تبقى حبيس عليها الحدود فتعثر في طريقها وتسير مبهمه المعـالم ويتخبط صراعها وينعدم انطلاقها وتضعف حيويتها .

ان كتاب « الايديولوجيه الانقلابيه » يطرح السؤال الصحيح الذي كان يجب ان يتوفر للحركه العربية منذ مدة طويلة . وكل ثوره ، في اي حقل من حقول المعرفه ، كما يبين الدكتور البيطار ، انما هـي طرح للسؤالات الصحيحه . الكتاب لا يوفر لنا ايديولوجية معينة نعتمدها ، ولكنه يفسر لنا الدور الاول الذي كانت تميز به كل ايديولوجيـــة تاريخيه ، وهو تركزها على بعض الوجود التقليدي وتبرير ذلك النقض . ان جميع الايديولوجيات التاريخية قد آمنت بأن الحقيقة الانقلابيـــة الكبرى تركز في قلب المجتمع الحاضر ، فيكفل العمل الثوري الظـافر بدء الحياة السعيدة الجديده بسرعة ، لان الصلة بين زوال القديـم وولادة الجديد صلة مباشرة . وان المؤلف يشرح ذلك في فصل من اهم ما يمكن قراءته في الموضوع هو فصل « صورة الحرية في الايديولوجية الانقلابية » . فمن اراد تفصيلا وايضاحا بارزا عليه مراجعة ذلك الفصل، ففيه نرى ان عمل الايديولوجيات الاول يقوم في الرفض والتمرد والتدمير.

ان الانسان لا يستطيع ، الا ان يصغي بتوتر لا مزيد عليه الى هـذه الصرخة المدوية التي ينطوي عليها الكتاب والتي تنطلق داعية الشبـاب العربي الى مواجهة واقعية جريئة . انها تنطلق مدعومة بالبرهـــان التاريخي الديالكتيكي في ألف صفحة مليئة بالحجة والمقارنة التاريخية الواسعة . والكتاب بحق يغني الثوري العربي عن مكتبة وتشكل قراءته ودراسته شرطا من شروط وعيه الثوري .

سلمى الخضراء الجيوسي

قريبا

حكايا للحزن

مجموعة قصص جديدة بقلم

اديب نحوي

مؤلف « حتى يبقى العشب اخضر » و « جومبي »

منشورات دار الاداب